مجلة الأسرة والمجتمع
مجلة دولية محكمة نصف سنوية
تصدر بثلاث لغات
FAMILY AND SOCIETY JOURNAL
International Biannual Journal
refereed Issued in three languages
الترقيم الدولي: ISSN:2392-5337 الترقيم الإلكتروني: EISSN: 2602-6716
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/236

المجلد: 11/ العدد: 01 / 2023	تاريخ إرسال المقال:11/ 05/ 2022	تاريخ القبول: 17 / 07/ 2023	تاريخ النشر: 31/ 08/ 2023	الصفحة: 80 – 100

مفهوم القيم الروحية عند ابن خلدون في بناء الحضارة وسقوطها

The concept of spiritual values according to Ibn Khaldun in the construction and fall of civilization

رياض عميراوي	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية ، قسنطينة (لجزائر)	riadamiraoui@gmail.com r.amiraoui@univ-emir.dz

ملخص:

تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على أهم المبادئ والقيم الروحية التي يعتبرها ابن خلدون ضرورية لبناء الحضارات وسقوطها، لا سيما الحضارة الإسلامية التي شُيدت لقرون من الزمن وقدمت للبشرية قفزات نوعية في شتى مجالات العلوم، وإذ يعتبر ابن خلدون من المجددين المسلمين في علوم العمران والاجتماع، فقد اعتمد أسسا ومبادئ تقوم عليها الحضارة، لما رأى من تداعيات سقوط الاندلس في أيامه، حيث عاين أسباب هذا السقوط الذي حدث في عصره، ودعا الى إعادة بناء الحضارة على أسس وقيم ومبادئ محددة. فما هي هذه القيم التي اعتمدها ابن خلدون من أجل ذلك؟ وما مدى تطبيقه لتلك القيم في شتى المجالات؟

الكلمات المفتاحية: الحضارة؛ القيم الروحية؛ ابن خلدون

Abstract:

This study aims to shed light on the most important principles and spiritual values that Ibn Khaldun considered necessary for the building and downfall of civilizations, especially the Islamic civilization which was built for centuries and provided humanity with qualitative leaps in various fields of science. And principles on which civilization is based, when he saw the repercussions of the fall of Andalusia in his days, where he examined the causes of this downfall that occurred in his time, and called for the rebuilding of civilization on specific foundations, values and principles. What are these values that Ibn Khaldun adopted for that? What is the extent of its application of these values in various area ?

Keywords: Civilization; Spiritual values; Ibn Khaldun

مقدمة:

لقد مر العالم بمراحل وحقب زمانية مختلفة كما يقول الأنتربولوجيون، بنى فيها الإنسان حضارات انسانية مختلفة ومتنوعة وأممٌ عمَّرتِ الأرضَ وشيّدتِ العُمرانَ، وسادت ثقافاتٍ متعددةٍ كحضارة المايا وحضارة الهيكسوس والفراعنة في مصر، وحضارة آشور وبابل في العراق وغيرها من الأمم البائدة كعاد وثمود.

ويختلف مفهوم الحضارة من أمة إلى أخرى ومن ملة إلى ملة حسب الأسس والقيم التي بُنيت عليها كل أمة حضارتها، فمنها ما بنيت على أسس مادية بحته وبعضها بني على أسس روحية وقيم إنسانية وقوانين سنية وأخرى أخلاقية وربما البعض الآخر قام على خليط بين هذه القيم جميعا، ولهذا كان هذا التباين بين التعريفات الاصطلاحية لمفهوم الحضارة، ويختلف مفهوم الحضارة عند المسلمين عن مفهومها الغربي؛ إذ تعني عندنا مجموع القيم والمبادئ مثل العدالة والمساواة، والحب والإخاء بين أفراد المجتمعات، ومدى تلاحم هذه الأمة، وخضوعها إلى قانون يربطها يرعاها ويرعى مصالحها، في حين يرى الغرب أن الحضارة تتمثل في مدى نجاح هذه الأمة في نتاج هذه الأخيرة من أمور مادية دنيوية كالعمران وقوة السلاح والبطش والهيمنة، وتطورها في ميادين الزراعة والاقتصاد والصناعة... وغيرها.

والمعروف لدى القارئ للحضارة الإسلامية التي بناها النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة خلال زمن قياسي وامتدادها بعد ذلك إلى الأندلس ثم سقوطها بعد أن عمرت ثمانية قرون تغذي البشرية والانسانية جمعاء من خيرها وفضلهاّ، ودون الخوض في أسباب هذا السقوط، فإن هذه الحضارة قد شيدت على أسس وقيم ومبادئ روحية استُمدت من موروثنا الثقافي العريق المبني في غالبه على القرآن والسنة والوحي.

وإن من المطالب الشرعية التي لا تستقيم حركة الحياة البشرية بدونها إيجادَ نوع من التوازن بين القيم الروحية، والقيم المادية، وإعطاءَ كل ذي حق حقه؛ لأن أي طغيان لجانب على آخر يؤدي إلى خلل كبير في الحياتين الروحية والمادية معا، وقد مر المسلمون في تاريخهم على فترة طغت المادية فيها بشهواتها ومجونها وترفها على الحياة الروحية، فكانت النتيجة أن خلد كثير من قيادات المسلمين وحكامهم إلى الدنيا وتساهلوا عن أداء العديد من التعاليم الإسلامية الحنيفة، ثم كانت ردة الفعل أن جنحت طوائف من المسلمين إلى تغليب الجانب الروحي على المادي عرفوا في حقبة تاريخية بالزهاد والعباد والمتصوفة، فكانت نزعتهم تدعو إلى ترك الدنيا وما فيها، وكانت النتيجة أيضا كارثية، حيث أدى ذلك إلى إهمال الأخذ بالوسائل والأسباب، ووقع خللٌ عظيم في فهم المعاني الشرعية

السلوكية، كالتوكل، وتربية النفس، فأصاب المسلمين جراء ذلك ضعفٌ في المجالات العلمية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، في حين تقدم غيرهم، فأصبحنا عالة على ما يأتينا من أعدائنا..من صناعات ومنتجات.

ويعتبر ابن خلدون من الذين أسهموا في بناء الحضارة الانسانية التي ركز فيها على مجموع من القيم والأبعاد الروحية إضافة إلى أسس مادية، وقوانين اجتماعية وأخرى طبيعية.

وبما أن ابن خلدون ينتمي بإيمانه وثقافته إلى الروح الاسلامية والدين الحنيف فهو لا ينفك أن يبني هذه الاسس والقيم انطلاقا من ما ورثه عن الأجداد والآباء من علم وفهم للقرآن والسنة، ومن أعراف وتقاليد، وفنون.

فما هو مفهوم القيم الروحية عند ابن خلدون والتي وضعها كأسس وكلبنات لبناء الحضارة؟ وماهي مصادره ومراجعه في ذلك؟.

وبالتالي يذهب جهد الباحث سدى، ويلقى في الوقت نفسه كثير من الانتقادات والمعارضة، وعليه فلا بد من تحرير بعض المصطلحات الضرورية مثل مفهوم الحضارة والمدنية والقيم الروحية.

1: مفهوم الحضارة الإسلامية:

اختلف تعريف الحضارة بين العلماء والمثقفين حسب ما تقوم عليه من قيم وأخلاقيات ومبادئ وأسس سواء كانت مادية أم معنوية.

1–2: تعريف الحضارة:

1–2–1: الحضارة في اللغة: الحضارة في اللغة: مأخوذة من كلمة الحضر، وتعني الإقامة في الحضر، وهي تقابل حياة البداوة وما يطغى عليها من حياة الرعي والتنقل في البوادي والصحراء (**العدوي، 1994، ص 08**) وقد استعمل ابن خلدون لفظة الحضارة المشتقة من الإقامة في الحضر، وعرّفها بأنها أحوال عادية زائدة عن الضروري من أحوال العمران، وهي السكون والدعة ورقة الحاشية والتفنن في الترف واستجادة أحواله (**خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، 2001، صفحة 102**).

1–2–2:– الحضارة في الاصطلاح: يمكننا تعريف الحضارة الإسلامية بأنها نتاجٌ لتفاعل ثقافات الشعوب التي دخلت في الإسلام، سواء إيماناً أو تصديقاً أو اعتقاداً، أو انتماءً وولاءً وانتساباً، وهي خلاصةٌ لتلاقح هذه الثقافات والحضارات التي كانت قائمةً في المناطق التي وصلت إليها الفتوحات الإسلامية، ولانصهارها في بوتقة المبادئ والقيم والمثُل التي جاء بها الإسلام هدايةً للناس كافة (**عبد العزيز بن عثمان التويجري، 2003، صفحة 13**)،

فهي نشاط فكري إنساني تمت صياغته في إطار القيم الروحية والأخلاقية المستمدة من العقيدة الإسلامية (**ياغي, اسماعيل احمد (1997)، ص 14**)

ويعرف الحضارة ابن خلدون بقوله هي: "النمط من الحياة المستقرة التي تقتضي فنوناً من العيش والعلم والصنائع وإدارة شؤون الحياة وسياسة الأمم والشعوب وازدياد حياة الترف وأسباب الرفاهية" (**إبن خلدون، عبد الرحمن (2001)،كتاب العبر وديوان المبتدأ، ص 05**)

ويقول مالك بن نبي إن: "الحضارة يجب أن تحدد من وجهة نظر وظيفية، فهي مجموعة الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين، أن يقدم لكل فرد من أفراده، في كل طور من أطواره وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور، أو ذاك من أطوار نموه (**مالك،بن نبي(1964)، ص1**)

أما الحضارة في المنظور القرآني: فهي نموذجٌ إنسانيٌّ يستبطن قيم التوحيد والربوبيَّة، وينطلق منها كبعدٍ غيبيٍّ، يتعلق بوحدانيَّة خالق هذا الكون وواضع نواميسه وسننه، والمتحكم في تسييره، ومن ثمَّ، فإنَّ دور الإنسان ورسالته هي تحقيق الخلافة عن خالق هذا الكون في تعمير أرضه، وتحسينها، وتزجية معاش الناس فيها، وتحقيق تمام التمكين عليها، والانتفاع بخيراتها، وحسن التعامل مع المسخَّرات في الكون، وبناء علاقة سلام معها، لأنَّها مخلوقات تسبّح بحمد الله، أو رزق لا بدَّ من حفظه وصيانته، وكذلك إقامة علاقة مع بني الإنسان في كلِّ مكانٍ على ظهر الأرض، أساسها الأُخوَة والأُلْفة، وحبُّ الخير، والدعوة إلى سعادة الدنيا والآخرة.." (**عارف، نصر محمد (1994)، ص59**).

2:– تعريف المدنية: هي قريبة جدا من تعريف الحضارة لكنها تنحو قليلا إلى التركيز على السنن المادية ولا تغفل طبعا الجوانب الأخرى، حيث يقول ابن خلدون: «إذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه" (**إبن خلدون، عبد الرحمن (2001)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ص 42**) ويقول في موضع آخر مفسرا وموضحا هذا المفهوم واختلاف الناس في فهمه: «وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه، حتى يستغنوا عن الحكام رأساً ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدينة الفاضلة، والقوانين لمراعاة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة فإن هذه غير تلك، وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع، وإنما يتكلمون عنها على جهة الفرض والتقدير، ثم إن السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين: أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة، و قد أغنانا الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة، لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح

العامة والخاصة وأحكام الملك مندرجة فيها"، (**إبن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، 2001، صفحة 303**) ، فالمدنية إذا هي: «الرقي في العلوم الطبيعية التجريبية كالهندسة والكيمياء والصناعة، وسمّيت مدنية لارتباطها بالمدينة والاستقرار، وهي تعبير عن أنماط المعيشة في أسسها المادية وفي صورها المحسوسة في حياة الناس" (**العدوي، إبراهيم (1994)، 21**) يذهب بعض الباحثين إلى أن هذا التقسيم والتفريق بين المدنية والحضارة أقرب لأن يكون تقسيما فنيا لا غير، فالنواتج المادية للحضارة لم تنشأ من فراغ فكري وإنما تسبقها دائما الأفكار التي تتبلور فيما بعد، وتتجسد في شكل مادي، وأن الإبداعات المادية ما هي إلا رموز تحمل أفكار أصحابها (**عمر عبيد، حسنة (1992)، ص12**)

إلا أن الحضارة أعمّ وأشمل من المدنية، فالحضارة تشتمل على النشاط الاجتماعي من كافة جوانبه الروحية والمادية (**الشريف، أحمد (1976)، ص 14**) ، أما المدنية فهي مجرد النشاط المادي للمجتمع وما حققه الإنسان في واقع الحياة من خبرات عملية.

3– تعريف القيم الروحية:

الإنسان مخلوق من مادة وروح، وقد يسر الله له سبل العيش في هذه الحياة، وأمده بالتوجيهات اللازمة للعناية بالجانبين المادي والروحي، ففي الجانب الاول أرشده إلى وسائل حاجاته المادية من غذاء وكساء وعلاج ونحو ذلك. وفي الجانب الثاني أرشده إلى عبادته والاخلاص له، والشكر له على نعمه بالتزام الصدق والعدل والرحمة والتواضع...وبذلك يحصل الانسان على غذاء متوازن لمكوناته المادية الروحية، والتوجيهات التي يتضمنها الجانب الثاني هوما يعبر عنه بالقيم الروحية.

3–1– تعريف القيم الروحية:

3–1–1– في اللغة: تعريف القيم لغةً: يقول ابن منظور القيم: "جمع قيمة، والقيمة: ثمن الشيء، يقال: كم قيمت ناقتك، أي :كم بلغت (**ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم ، (1410 هـ)، ص 150**)

وفي المعجم الوسيط: القيم تعني: "قيمة الشيء وقدره، وقيمة المتاع أي ثمنه، وقوم الشيء أي أصلحه، وقيم الشيء أي أظهر ما فيه من إيجابيات وسلبيات" (**مجمع اللغة العربية (1994) الصفحات ق–ي–م**)، وقال الراغب أن معنى القيم لغة: "أي ثابتاً مقوماً لأمور معاشهم ومعادهم"(**الأصفهاني (1412هـ)، ص 201**)

وفي مختار الصحاح، القيمة: "واحد القيم، وقوم الشيء تقويماً فهو قويم مستقيم، وقيمة الشيء: أي قدره" (**بكر، الرازي محمد (1988)، ص 311**)

والقيم جمع قيمة، وهي ثمن الشيء؛ سمي بذلك لأنه يقوم مقامه، وقومت السلعة أي ثمنتها، والقيمة هنا تشير إلى الثبات في الثمن؛ لذا يقال: ما له قيمه إذا لم يدم على شيء أو لم يثبت على ثمن، وهذا من باب المجاز، وتقييم الشيء: إعطاؤه قيمة بهدف ترتيب الأشياء حسب الأفضلية، أما التقويم فهو التصحيح ليصبح الشيء مستقيماً بعد اعوجاج، والاستقامة الاعتدال، (**الأصفهاني، 1412هـ، صفحة 132/33**)، و يمكن تلخيص مدلولاتها في أربع معاني وهي: الثبات والدوام والاستقامة، والقدر.

3-1-2- في الاصطلاح:

تعريف القيمة وفق المفهوم الإسلامي حيث عرفت بأنها: "مجموعة الأخلاق التي تصنع نسيج الشخصية الإسلامية، وتجعلها متكاملة قادرة على التفاعل الحي مع المجتمع وعلى التوافق مع أعضائه، وعلى العمل من أجل النفس والأسرة والعقيدة، أو هي: "معيار وغاية نابعة من الشرع، ومنبثقة عن العقيدة الإسلامية، يقصدها المسلم عند قيامه بالأعمال، وتقف في أعلاها غاية الغايات وهي مرضاة الله"(**محمد ريان، ص،68**).

فالقيمة وفق المفهوم الإسلامي هي محددات سلوكية وخلقية ومعايير وضوابط اجتماعية مستمدة من الشريعة الإسلامية يستطيع الفرد من خلالها التفاعل مع نفسه والآخرين أو مع الإنسان والكون والحياة في كل زمان ومكان، وهذه المحددات تؤهله لاختيار كل أهدافه وتوجهاته وسلوكياته بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ويعرفها الدكتور أحمد عثمان بقوله:" هي مجموعة من الأوامر والنواهي التي تجعل سلوك الإنسان متطابقاً مع قواعد الشرع الحنيف والتي تشمل عقيدة الإنسان وعبادته ومعاملاته، مع بني جنسه، وعلاقته مع الكون الذي يعيش فيه، وتكون نابعة من القرآن الكريم والحديث الشريف" (**أحمد، عثمان(1402)، ص 120**) والمقصود بالروحية مجازا خلقية ووفق هذا المفهوم أمكن تصور ثلاثة عناصر للقيم الروحية في الإسلام وهي:

1- **الجانب المعرفي**: وذلك من خلال التعرف على تلك المبادئ والمعايير وإدراك معناها وأبعادها.
2- **الجانب الانفعالي**: الذي يقتضي اختيار تلك القيم وتقديرها والتحمس لها والاعتزاز بها والسعادة لاختيارها وتبنيها في الحياة بحيث توجه صاحبها الوجهة التي تتسق مع ما تبنى.
3- **الجانب العقدي**: فالقيم في الإسلام ليست مرهونة بأذواق الناس وعاداتهم، ولا يحددها النمط الثقافي والحضاري السائد في المجتمع، ولكن يحددها الشرع، فهي جميعها شرعية، وليست مقسمة إلى قيم اجتماعية أو قيم ثقافية

كما يحلو للبعض تسميتها، فالحسن هو ما حسنه الشرع، وإن خفي حسنه على الناس، والقبيح هو ما قبحه الشرع، وإن خفي قبحه على الناس.

-أصول القيم الروحية:

تستند القيم الروحية إلى أسس مرجعية أصيلة وهي: القرآن والسنة، والسيرة النبوية العطرة التي تعد التطبيق العملي للقرآن، كما قالت عائشة رضي الله عنها حين سئلت عن أخلاق الرسولﷺ:"كان خلقه القرآن".

-خصائص القيم الروحية:

تتميز القيم الروحية في الإسلام بخصائص ثلاث:

أ-**خصيصة الثبات:** ومعناها أن القيم ثابتة لا تتغير بتغير الزمان والمكان، وتبدل الظروف والأحوال، ولكن قد تتغير وسائل تحقيقها.

ب- خصيصة الاستمرار: ومعناها أن المسلم مطالب بتحري هذه القيم والتزامها في مختلف مواقف الحياة.

ج- خصيصة الشمول: ومعناها أن هذه القيم توجه سلوك الإنسان في مختلف مجالات الحياة حيث تشمل علاقته بربه وبنفسه، وبأسرته وجيرانه وبالناس كلهم، وبالبيئة المحيطة به، كما قال تعالى: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ (**سورة الأنعام، آية: 162**).

ثانيا: المقصود بالقيم الروحية عند ابن خلدون في بناء الحضارة

في البداية علينا أن نوضح حقيقة أغفلها كثير ممن يكتبون عن ابن خلدون ومنهجه، وهي أن ابن خلدون، مثل سابقيه العلماء الموسوعيين، الذين تمكنوا من الإلمام ببعض التخصصات المختلفة، في الفقه والشريعة والتاريخ وعلوم الطبيعة والعلوم الإنسانية والعمران والمدنية.

وكل محاولة لإخراج فكر ابن خلدون عن انتماءه الصحيح للمنهجية الإسلامية القرآنية، وجدوره الإيمانية المحققة لموسوعية فكره فهي خطأ علمي وتاريخي يكذبه الواقع والمنهجية العلمية المنصفة.

فإذا أثبتنا أن ابن خلدون كان حريصا على الرجوع إلى الأصول الإيمانية التوحيدية وأن ثقافته مستمدة من جذور اسلامية عربية ومستوحاة من شريعة الآباء والأجداد ومن الوحي والقرآن والسنة والاجماع، فسنثبت بعد ذلك أن القيم التي اعتمدها ابن خلدون هي بالضرورة القيم الروحية الاسلامية والمبادئ والأخلاق القرآنية.

وإذا كان بعض المستشرقين قد دندن حول هذه الشبهة وأراد أن ينزع الرجل جلباب الدين وقميص الشريعة أمثال المستشرق الألماني: "فون فيسندنك»، والهولندي: "دي بوير"، ومن سار سيرهم وتأثر بهم مثل ممن يقول

أن ابن خلدون (لا يعدّ النبوة ضرورة للاجتماع الإنساني)، وأنه (ارتفع فوق معتقداته الدينية، وهو يحقق منجزاته الضخمة)، وأنه (يبني نظريته العلمية بطريقة فريدة على المادة التجريبية)!!.. وكل هذا ضرب من الوهم والخيال لا صحة له.

فإن البعض الآخر قد رأى عكس ذلك وأثبت للرجل ميوله الديني الاسلامي في كتاباته ومؤلفاته أمثال: "يخترغوستاف" و"هيميلتون جب"، وغيرهم، مثل الكتاب الرائع للدكتور عماد الدين خليل تحت عنوان ابن خلدون اسلاميا طبعة 1-1-1985م، المكتب الاسلامي للطبع والنشر، الطبعة الثانية يدلل فيه على مدى تشبع هذا الأخير بالروح الإسلامية والثقافة العربية من خلال المقدمة، والجابري الذي اهتم كثيرا بابن خلدون وله دكتوراه وبعض الأبحاث في منهجه، وغيرهما ممن أراد أن يؤصل لدراسات ابن خلدون.

وأستشهد هنا ببعض الآراء لبعض المستشرقين من الصنف الأول ثم لمستشرقين من الصنف الثاني:

يقول المستشرق الهولندي (دي بوير) صاحب كتاب: "تاريخ الفلسفة في الاسلام "أن الدين لم يؤثر في آراء ابن خلدون العلمية بقدر ما أثرت الآراء الأرسطو طاليسية الأفلاطونية.." (**بوير، دي (1948)، ص 177**)

وينقل عبد الله عنان في كتابه عن ابن خلدون قول: (ناتانيل شميت)، أن ابن خلدون، إذا كان يذكر خلال بحثه كثيرًا من آيات القرآن، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن"(**عنان، محمد عبد الله (1995)، ص 177**).

ويقول المستشرق الألماني: (فون فيسندنك): "إن ابن خلدون، تحرر من أصفاد التقاليد الإسلامية في درس شؤون الدولة والإدارة وغيرهما، وأنه حرر –كذلك– ذهنه من القيود الفكرية، التي ارتبطت في عصره بالعقائد العربية" (**عنان، محمد عبد الله (1995)، ص35**).

أما الصنف الثاني من المستشرقين فقد يرى عكس ذلك: ولنمثل بالمستشرق: (ريختر) إذ يقول: "إن إنجاز ابن خلدون، إنجاز لا يبتعد كثيرًا عن الروح العربية الإسلامية، كما يحلو للبعض أن يصور، وإن ابن خلدون الذي تتميز نظريته بالطابع الواقعي التجريبي، يبقى في السياق العام للثقافة الإسلامية، ولا يخرج عليه، كما لا يحاول تغييره .

وينقل (هاملتون جب) نص ابن تيمية من كتابه: (الحسبة)، مبينًا أنه لا فرق بين الرأيين، وبالتالي فابن خلدون عالم سني مثله مثل ابن تيمية.

ويفاجئنا هنا أركون بقوله: "أن ابن خلدون كان يطمح إلى منصب أو زعامة، وقد ضل منغلقا على نفسه ضمن التعاليم السنية دون أن يكلف نفسه عناء البحث فيها" (**غوردو، عبد العزيز (2001)**) ، وهذا ما كنا نبغ.

بل إن ابن خلدون –كما يقول (جب)– لم يكن مسلمًا فحسب، بل كان كما تكاد كل صفحة من المقدمة تشهد به، فقيهًا متكلمًا من أتباع المذهب المالكي المتشدد، وكان يرى أن الدين أهم شيء في الحياة، وأن الشريعة هي الطريق الوحيد إلى الهدى والرشاد.

ويرى (جب) أن الأساس الأخلاقي الإسلامي في فكر ابن خلدون، ضمني يستشف خلال عرضه كله، عدا عن أنه يلجأ دائمًا إلى الاستشهاد بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، أما مبدؤه القانون الطبيعي... ذلك المبدأ الذي يراه بعضهم معارضًا –على نحو حاد– للآراء الكلامية الإسلامية في القرآن، فليس هو–(في رأي جب)– إلا سنة الله، يتردد ذكرها في القرآن.

ومع ذلك، فما أكثر الدراسات، التي تجاهلت هذه الحقيقة، ونظرت إلى ابن خلدون بمنظار معين، وحاولت نزع انتمائه عنه، وإلباسه رداءًا لا يصلح له، وتصويره بصورة لا تليق به.

ولهذا فإن أي قيمة روحية أو إنسانية طبعا لا تتعارض مع فطرة الإنسان –وهذا ما يدعو إليه الاسلام– لا يمكن إلا أن تكون نابعة من القرآن والسنة والموروث الثقافي الاسلامي.

ويرى أن تحريم الظلم مثلا هو عين الحكمة في إصلاح العمران والحضارة، وهذا ما يدعو إليه الاسلام، وشواهده كما يقول من الكتاب والسنة كثيرة، فيقول: "فلما كان الظلم كما رأيت مؤذنا بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران، كانت حكمة الخطر فيه موجودة، فكان تحريمه مهما، وأدلته من القرآن والسنة كثيرة، أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر" (**ابن خلدون (2001) المقدمة، ص 278**)، ليس الظلم فقط سبب خراب العمران بل هناك أمورا أخرى مثل الترف والانغماس في الملذات، وقد سلط القرآن الأضواء على زوايا مختلفة من مسألة الترف ليبين دوره في ذهاب الدول وخراب العمران، لذلك يرى القرآن وجود الطبقات المترفة خطرا داهما لا يفتأ يتهدد الحياة الإنسانية، ويشوب مستقبلها بالخوف والخطر، ويرى أن تأمين الشعوب على سعادتها وحقها يتطلب اتخاذ الوسائل الممكنة للحيلولة دون ظهور الترف والمترفين، والقرآن يعتبر الترف آية كبرى على الشروع في السقوط، لما يستدعيه الترف من أجواء اجتماعية موبوءة، ومستوى روحي فارغ متدني، وانحلال أخلاقي كبير، وامتلاء القلوب والعقول بالمادة والشهوات، وفراغ كلي من المبادئ والاهتمامات..ونظرة سطحية ظاهرة لرسالة الإنسان في الوجود.

وعليه فإن المقصود بالقيم الروحية عند ابن خلدون بل وتطبيقاتها أيضا على الواقع يؤكد ذلك، حيث اعتمد عليها في بناء وفهم الحضارة وأسس بناءها هي: تلك القيم والسنن والمبادئ المستمدة من القرآن والسنة، وباعتبار أن الرجل كان مسلما فقيها عالما موسوعيا، ولم يغفل عن شيء مما هو من التقاليد والأعراف السائدة وما توارثه المسلمون من علم وفهم عن الآباء الأجداد، مع نقده ونقضه لبعض العادات والأعراف الفاسدة والخرافات والاباطيل التي علقت بهذا الموروث، فالرجل كان مجتهدا له أن يختار الدليل ويوجهه، وقد أفاد منهجا تاريخيا ومنهجا علميا فريدا أدهش القريب والبعيد.

1-: القيم الروحية عند ابن خلدون من منظور قرآني:

نعني بالقيم الروحية من منظور قرآني الأبعاد والمبادئ الأخلاقية والأسس الإيمانية والمستمدة من القرآن الكريم، التي ينطلق منها ابن خلدون ويستعملها كمرجعية له في بناء فكره وفهمه.

لا نشك طرفة عين أن ابن خلدون تشبع بالثقافة الاسلامية ونهل من معين القرآن والسنة ما يؤهله لكي يكون فقيها مؤرخا وعالما مسلما، منطلقاته القيم الإسلامية والمبادئ الإيمانية وأهدافه غاياتُها، ولم يكن منهج ابن خلدون في الاستدلال بالقرآن الكريم بعيدا عن منهج من سبقوه من علماء المسلمين في استحضار النص القرآني، بين ثنايا السياقات المعرفية المختلفة، إن في العلوم الشرعية أم في العلوم الكونية، ومن الصعب أن لا يكون ابن خلدون قد قرأ أبا حامد الغزالي، وأحمد بن عبد الحليم بن تيمية، وابن القيم الجوزية، وابن الجوزي، وأقطاب المذاهب الفقهية الثلاثة عشر، وأقطاب الحركات الفلسفية والكلامية والفكرية..أوقرأ كثيرًا من إنتاجهم على الأقل؛ إلا أن ابن خلدون تفرّد عن غيره في توظيف النص القرآني والإفادة منه في مواطن الحديث عن الملك والسياسة والعصبية والعمران..وهذا ما لم تألفه الدراسات التي سبقته في هذا الميدان، وهو من منطلق استناده إلى الوحي المعصوم، فإن فلسفة التاريخ عنده هي النظرة الشمولية إلى التاريخ في حاضره وماضيه ومستقبله، والرجل معتز لأصوله الإيمانية وانتمائه للإسلام لم يخف ذلك؛ بل عقد فصلا في كتاب المقدمة سماه الفصل الخامس في علوم القرآن من التفسير والقراءات مشيدا بهذه العلوم وبمن برع فيها، وهي عنده من علامات الحضارة والمدنية، وإنك عندما تتصفح مقدمة أحد كتبه يبهرك بحسن الحبكة والصنعة على غرار علماء الاسلام الذين سبقوه، حيث يبدأ بالحمد والثناء على الخالق سبحانه وتعالى وبالصلاة على خاتم الأنبياء فيقول في بداية كلامه في المقدمة: «يقول العبد الفقير إلى الله تعالى الغني بلطفه عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي وفقه الله: الحمد لله الذي له العزة والجبروت وبيده الملك والملكوت وله الأسماء الحسنى والنعوت، العالم فلا يغرب عنه ما تظهره النجوى أو يخفيه

السكوت، القادر فلا يعجزه شيء في السموات والأرض ولا يفوت، أنشأنا من الأرض نسما واستعمرنا فيها أجيالا وأمما ويسر لنا منها أرزاقا وقسما تكنفنا الأرحام والبيوت ويكفلنا الرزق والقوت وتبلينا الأيام والوقوت وتعترينا الآجال التي خط علينا كتابها الموقوت، وله البقاء والثبوت وهو الحي الذي لا يموت والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي العربي المكتوب في التوراة والإنجيل..." (**ابن خلدون (2001)، المقدمة، ص 05**)

ثم يواصل فيقول: «...وعلى آله وأصحابه الذين لهم في صحبته وأتباعه الأثر البعيد والصيت..صلى الله عليه وعليهم ما اتصل بالإسلام جده المبخوت وانقطع بالكفر حبله المبتوت وسلم كثيرا أما بعد:" (**ابن خلدون (2001)، المقدمة، ص233**) فلا أدل على هذا المقطع من المقدمة الطويلة التي افتتح بها كتابه على رسوخ قدم ابن خلدون في العلم، والدين والإيمان ولا أتم للعقل والفهم، والتوكل على الله منه، ويظهر من خلالها أيضا تشبعه بالثقافة الاسلامية وباللغة العربية والبلاغة وبأهداف الشريعة.

وقد استفاد بن خلدون من النصوص القرآنية ما يثبت رأيه، وما يتفق مع فهمه في مواضع متعددة مختلفة، فالقرآن مثلا يذم الظلم ويأمر بالعدل وابن خلدون عقد له في المقدمة فصلا عنوانه: "الظلم مؤذن بخراب العمران"، حيث يقول تحت النوع الثالث والأربعون: "الشرعية في الأحكام فإنها كلها مبنية على المحافظة على العمران" (**ابن خلدون**)، ويقول أيضا: "فجباة الأموال بغير حق ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وكل هذا يسرع في هرم الدولة وزوالها مستشهدا في هذا السياق بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين يصيبكم ما أصابهم"، ومستندا إلى المستند الشرعي من القرآن الكريم لتحريم الظلم، ويقول: "واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري" (**ابن خلدون، عبد الرحمن (2001)كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ص 287**). ويتحدث في مقدمته عن الفكر بأنه الأداة التي تميز الإنسان عن سائر الحيوانات، وتمكنه من أداء دوره العمراني في العالم كخليفة عن الله فيه، ولا يكاد وهو يتوغل في الموضوع أن يفارق طريقته التي اعتادها: الإحساس الدائم بالحضور الإلهي المستمر في التاريخ، والاستشهاد بآيات من كتاب الله، وهما أمران لهما دلالتهما على عمق الحس والرؤية القرآنية لدى ابن خلدون، فيذكر في السياق قوله تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ وقوله تعالى: ﴿أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾، ويختم بقوله: «والله الموفق للصواب والمعين عليه". (**ابن خلدون، عبد الرحمن (2001)كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ص45**).

وإليك بعض الآيات التي يستدل بها في عدة مواضع على سبيل الاجمال قال الله تعالى:﴿خلق الإنسان * علمه البيان﴾ص:426، وقال الله:﴿ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ص:465، وقال الله:﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾، ص: 466، واستشهد بعد ذكر قصور العقل وكمال الدين، فلذلك نهانا الشارع عن النظر في الأسباب وأمرنا بالتوحيد المطلق ﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد﴾، ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الإحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله وسفه رأيه في ذلك. ص 566، وقال الله تعالى:﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾، فبهذه المدارك يستولي على ملكات المعارف ويستكمل حقيقة إنسانية ويوفي حق العبادة المفضية به إلى النجاة.486، وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم:﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه﴾، ص502، وقال تعالى:﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني﴾ 583، وقال تعالى:﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً، وقال تعالى: لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾، ص: 158، وقال تعالى:﴿حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾، وقال تعالى: ﴿واجعل لي وزيرا من أهلي *هارون أخي * اشدد به أزري * وأشركه في أمري﴾ ص: 234، وقال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾، ص: 202، وقال تعالى:﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾، ص: 446، وقال تعالى:﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب﴾، ص: 480. والنصوص متعددة أكثر مما تذكر ها هنا.

2-: القيم الروحيةعند ابن خلدون من منظور سني:

نعني بها رجوعه إلى السنة النبوية الشريفة واستلهام معانيها والاستدلال بها واسقاطها على الواقع حسب فهمه لها، وهذا الأمر يتكرر في صفحات مقدمته الذائعة الصيت، فلقد عقد ابن خلدون فصلا في علم الحديث وأشاد به وبأصحابه باعتبار أن علم الأسانيد مما تتميز به هذه الأمة، وهو دليل على الحضارة أيضا والتميز، وعقد كذلك الفصل السادس عشر: في كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة وما حدث لأجل ذلك من طوائف السنية والمبتدعة في الاعتقادات، يذكر فيه أنواع النصوص والخلل المترتب عن عدم فهمها، ويقر أن فهمها يؤدي إلى قطع التنازع، "على أنه ينبغي أن يكون لكل أحد من المفتين والمدرسين زاجرا من نفسه يمنعه عن

التصدي لما ليس له بأهل فيضل به المستهدي ويضل به المسترشد **وفي الأثر** أجراكم على الفتيا أجراكم على جراثيم جهنم، فللسلطان فيهم لذلك من النظر ما توجبه المصلحة من إجازة أورد" (**ابن خلدون، عبد الرحمن (2001)كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ص 220**)، وعقد فصلا في الوحي يتحدث عن صاحب الرسالة فيقول: «اعلم أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصاً فضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته وجعلهم وسائل بينهم وبين عباده يعرفونهم بمصالحهم ويحرضونهم على هدايتهم ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلّونهم على طريق النجاة وكان فيما يلقيه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والأخبار الكائنات المغَيَّبَةِ عن البشر التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم، قال صلى الله عليه وسلم: "ألا وأني لا أعلم إلا ما علمني الله"، (**ابن خلدون،(2001)، المقدمة، صفحة 94**)، ثم يشرع في تفصيل صور الوحي، ويستدل بحديث النبي صلى الله عليه وسلم، وبآية من القرآن، فيقول: «ثم يتنزل إلى المدارك البشرية إما بسماع دوي من الكلام فيتفهمه أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله، ثم تنجلي عنه تلك الحال وقد وعى ما أُلقي إليه، قال صلى الله عليه وسلم: وقد سئل عن الوحي أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول، ويدركه أثناء ذلك من الشدة والغط مالا يعبر عنه، ففي الحديث كان مما يعالج من التنزيل شدة، وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً وقال تعالى: إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً" (**إبن خلدون (2001) ، المقدمة، صفحة 94**).

ويتحدث حين عقد القسم الأول من الفصل الثالث والخمسين في أمر الفاطمي وما يذهب إليه الناس فيشأنه وكشف الغطاء عن ذلك عن الروايات والأحاديث الواردة في ذلك مستدلا وممحصا ومنتقدا أحيانا أخرى الضعيف منها والموضوع في إحدى عشرة (11) صفحة متتالية، مما يدل على طول باعه في الحديث وعلمه بالسنة ومقاصدها، بل ويدعو دائما لتحكيم السنة باعتبارها الطريق السليم للتمكين والاستقرار فيقول: "وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القريبة نزعة من الدعاة إلى الحق والقيام بالسنة لا ينتحلون فيها دعوة فاطمي ولا غيره وإنما ينزع منهم في بعض الأحيان الواحد فالواحد إلى إقامة السنة وتغيير المنكر". (**عبد الرحمن، ابن خلدون (2001)، ص330**)،

فقر أن القيام بالسنة هو الأمر بالمعروف، وهو أساس العدل، وهي دعوة النبي صلى الله عليه وسلم وعمله في المدينة.

وإليك بعض ما استشهد به من السنة والأحاديث الواردة في الأثر كما جاءت في المقدمة:

-قالت عائشة: كان مما يعاني من التنزيل شدة وقالت: كان عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وأن جبينه ليتفصد عرقاً، في ص: **101**.

-قال صلى الله عليه وسلم: إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ص: **384**.

-والرؤيا لها نسبة من النبوة والوحي كما في الصحيح، قال صلى الله عليه وسلم: الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة فلخواصها أيضا نسبة إلى خواص النبوة. ص: **503**.

-وسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل إليه أنه يفعله وجعل سحره في مشط ومشاقة وجف طلعة ودفن في بئر ذروان فأنزل الله عز وجل عليه في المعوذتين: ومن شر النفاثات في العقد، قالت عائشة رضي الله عنها: كان لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها إلا انحلت. ص: **526**.

-فقال ومن أغربها إسناداً ما ذكره أبوبكر الإسكاف في فوائد الأخبار مستنداً إلى مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن جابر قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كذب بالمهدي فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كفر، ص: **312**.

-وأما الترمذي فخرجه وأبو داود بسند هما إلى ابن عباس .من طريق عاصم بن أبي النجود أحد القراء السبعة إلى زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: لولم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً مني أومن أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي .هذا لفظ أبي داود وسكت عليه، وقال في رسالته المشهورة إن ما سكت عليه في كتابه فهو صالح ولفظ الترمذي لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي وفي لفظ آخر حتى يلي رجل من أهل بيتي، ص: **313**.

-عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المهدي مني أجلى الجبهة اقنى الأنف يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يملك سبع سنين، ص:**315**.

-قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يكون في آخر أمتي، خليفة يحثو المال حثواً لا يعده عداً ومن حديث أبي سعيد قال: من خلفائكم خليفة يحثو المال حثواً ومن طريق أخرى عنهما قال: يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده انتهى، ص: **316**.

-قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جوراً وظلماً وعدواناً ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملأها قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وعدواناً، ص:**317**.

-قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المهدي منا أهل البيت يصلح الله به في ليلة، ص: **318**.

-قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقتتل عند كبركم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير إلى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلاً لم يقتله قوم ثم ذكر شيئاً لا أحفظه قال: فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي .ورجاله رجال الصحيحين إلا أن فيه أبا قلابة الجرمي، ص: **321**.

-عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ستكون فتنة لا يسكن منها جانب إلا تشاجر جانب حتى ينادي مناد من السماء أن أميركم فلان، ص: **323**.

-قال صلى الله عليه و سلم: لا يزني الزاني حين يزني و هو مؤمن، ص: **467**.

- قال صلى الله عليه و سلم: كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

- قال صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي وقاص عند مرضه بمكة اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم.

- قال صلى الله عليه و سلم الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا.**135**.

- كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم مولى القوم منهم.**136**. ونكتفي بما ذكرنا لورود ما قصدنا.

ثالثا-: تطبيقات ابن خلدون لهذه القيم الروحية

بعد أن عرفنا مفهوم القيم الروحية عند ابن خلدون من منطلق قرآني وآخر سني جئنا الآن لضرب أمثلة تطبيقية في فكره من خلال المقدمة ولنأخذ نموذجين الأول في نشأة الدولة والاجتماع السكاني، والآخر في العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع المسلم.

3-1- القيم الروحية في نشأة الدولة والأمة والاجتماع السكاني وما يتطلب لذلك.

إن أول ما تنبني عليه سياسة الأمم والدولة أساسا أخلاقيا يصلح عليه أمر الراعي والرعية، وهذا ما تقتضيه المدنية كما يرى ابن خلدون، حيث يقول: «إذ السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بمقتضى الأخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على منهاج يكون فيه حفظ النوع و بقاؤه" (**ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**،(**2001**)، **ص 42**).

ويشترط ابن خلدون للاجتماع البشري أو السكاني ضرورة وجود النبوة أو ما ينوب عنها، فيقول: «اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري، وهو معنى العمران الذي نتكلم فيه، وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون إليه، وحكمهُ فيهم تارة يكون مستنداً إلى شرع منزل من عند الله يوجِبُ

انقيادَهم إليه إيمانُهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه، وتارة إلى سياسة عقلية يوجب انقيادهم إليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعد معرفته بمصالحهم" (**إبن خلدون،(2001) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ص 303**).

فالأولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاته نجاة العباد في الآخرة، والثانية إنما يحصل نفعها في الدنيا فقط، وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وإنما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلقه، حتى يستغنوا عن الحكام رأساً ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدينة الفاضلة (**إبن خلدون،(2001) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ص 304**).ويؤكد ابن خلدون على فكرة النبوة في حماية الاجتماع الانساني وضرورتها للحصول على مجتمع مستقر.

ويرد المستشرق والمؤرخ (جب) عن بعض الذين يزعمون أن النبوة ليست ضرورية للاجتماع الانساني، فيبطل مزاعمهم العارية عن الدليل والبرهان حيث يعود برأي ابن خلدون في النبوة، وضرورتها للاجتماع الإنساني – إلى رأي عالم سني يتهمه بعضهم بالتشدد وهو الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، رحمه الله (**ت: 728هـ**).

بل إن ابن خلدون يفرد لهذه الفكرة الفصل السابع والعشرون في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة.

ويوضح بعدها السبب في ذلك فيقول: "والسبب في ذلك أنهم لخلق التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض للغلظة والأنفة وبعض الهمة والمنافسة في الرئاسة، فقلما تجتمع أهواؤهم فإذا كان الدين بالنبوءة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خُلُقُ الكِبْرِ والمنافسة منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يَشْمَلُهم من الدين المذهب للغلظة والألفة الوازع عن التحاسد والتنافس، فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله يُذهب عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك، وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق، إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيء لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات فإن كل مولود يولد على الفطرة كما ورد في الحديث و قد تقدم." (**ابن خلدون (2001)، المقدمة، ص 153**)

وإن كان ابن خلدون يبني نظريته على العصبية القبلية...فإن هذا التفضيل لقريش تقول به الآثار لميزات متوفرة عند العرب خصوصا، ولهذا كلفوا بالرسالة، ولكن المقصود بالعصبية ليس العصبية الجاهلية بل العصبية الطبيعية، يقول ابن خلدون في هذا الموضوع أن العرب بعد نزول الوحي تركوا العصبية الجاهلية ولم يبق لديهم إلا العصبية الطبيعية، وهذا نصه من المقدمة: «وإنما نسي ذلك أول الإسلام لما شغل الناس من الذهول بالخوارق وأمر الوحي وتردد الملائكة لنصرة المسلمين فأغفلوا أمور عوائدهم وذهبت عصبية الجاهلية ومنازعها ونُسيت، ولم يبق إلا العصبية الطبيعية في الحماية والدفاع ينتفع بها في إقامة الدين وجهاد المشركين والدين فيها محكم والعادة معزولة" **(ابن خلدون (2001)، المقدمة، ص216)**

ويرى ابن خلدون أن هذه العصبية قد تترك إذا عوضت بوازع إيماني، وقيم روحية إيمانية تهذب النفس ولا يمكن أن نقضي عليها إلا بالدين، "والتغلب إنما يكون بالعصبية واتفاق الأهواء على المطالبة وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه، قال تعالى: ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾، وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفتْ إلى الحق ورفضتْ الدنيا والباطل وأقبلتْ على الله اتحدتْ وجهتُها فذهب التنافس وقل الخلاف وحَسُنَ التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك، فعظمت الدولة كما نبين لك بعد أن شاء الله سبحانه وتعالى به التوفيق لا رب سواه" **(ابن خلدون (2001)، المقدمة، ص153)** ويعقد بعد هذا فصل خامس في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها، ويذكر السبب في ذلك فيقول: "والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتُفْرِدُ الوِجْهَةَ إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار فيأمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه أهل الدولة التي هم طالبوها إن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل وتخاذله ملتقية الموت حاصل فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم؛ بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل" **(ابن خلدون (2001)، المقدمة، ص157)** ، وبهذا تتضح الأبعاد الحقيقية والقيم التي يقول بها ابن خلدون والتي يؤمن بها في بناء المجتمع واستقراره وتطوره، وهذا رد كافٍ على من ادعى انسلاخ الرجل عن دينه.

3-2-1-: القيم الروحية في العلاقات الاجتماعية والأخلاق:

العلاقات الاجتماعية والروابط التي تجمع بين أفراد المجتمع والتعاملات التجارية والتكسب والعيش وغيرها والتي بنيت على أسس إيمانية راسخة وقيم روحية عالية ومبادئ أخلاقية راقية: يعقد ابن خلدون في بداية المقدمة كتابا كاملا في هذا الشأن لأهميته لصلاح العمران وللنهوض بالحضارة، وأن هذا الأمر من أسباب المدنية ويصلح عليه أمر المجتمع والحياة فيقول: "الكتاب الأول في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والأسباب" (**ابن خلدون (2001)، المقدمة**) ، يحاول الغوص في سنن الله في المعاش والأرزاق وما ينبغي للانسان العاقل الأخذ به مستدلا بآيات من القرآن الكريم إذ يقول: قال الله تعالى:﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾، وفي الباب الخامس من الكتاب الأول في المعاش ووجوبه من الكسب والصنائع وما يعرض فيذلك كله من الأحوال وفيه مسائل، (**إبن خلدون، عبد الرحمن (2001)، المقدمة**) ويواصل فيقول: «إعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته ويمونة في حالاته وأطواره من لدن نشوئه إلى أشده إلى كبره والله الغني وأنتم الفقراء والله سبحانه خلق جميع ما في العالم للإنسان وامتن به عليه في غير ما آية من كتابه فقال: ﴿خلقلكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه وسخر لكم البحر وسخر لكم الفلك وسخر لكم الأنعام﴾". (**إبن خلدون، عبد الرحمن (2001)، المقدمة، ص283**)

ثم يذكر أمرا في غاية الأهمية وهو قضية صلابة المجتمع إنما تكون في مدى متانة الروابط وقوة العلاقات الموجودة بين افراده، ولهذا دائما ما يركز ابن خلدون على أ ن يكون الراعي هو القدوة في الخلق كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى تصلح الرعية بل حتى يذعن كل فرد في المجتمع لما يقرره الملك لا بد من علاقة قوية تربطه بهم، ويرى ابن خلدون في هذا السياق أن الخلال الحميدة تعمل على تثبيت الملك فيعقد لأجل ذلك الفصل العشرون في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس، فيقول:"لما كان الملك طبيعياً للإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه وكان الإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناطقة العاقلة، لأن الشر إنما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه، وإما من حيث هو إنسان فهو إلى الخير وخلاله أقرب، والملك والسياسة إنما كانا له من حيث هو إنسان لأنهما للإنسان خاصة لا للحيوان فإذاً خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك، إذ الخير هو المناسب للسياسة، قد ذكرنا أن المجد له أصل يبنى عليه وتتحقق به حقيقته وهو العصبية وفرع يتمم وجوده ويكمله وهو الخلال"، (**إبن خلدون، عبد الرحمن (2001)، المقدمة، ص143**) ووجود العصبية بدون أخلاق كوجود شخص مقطوع الأعضاء أو ظهوره عرياناً بين الناس، وإذا

كان وجود العصبية فقط من غير انتحال الخلال الحميدة نقصاً في أهل البيوت والأحساب؛ فما ظنك بأهل الملك الذي هو غاية لكل مجد ونهاية لكل حسب، وأيضاً فالسياسة والملك هي كفالة للخلق وخلافة لله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم وأحكام الله في خلقه وعباده إنما هي بالخير، ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع" (**إن خلدون، المقدمة (2001)، ص 144**)، ويرى ابن خلدون أن مبدأ الأخلاق هو الأصل في الحفاظ على الملك والسياسة فيقول: «فالصالحون للدين والعلماء للجاءي إليهم في إقامة مراسم الشريعة للترغيب حتى تعم المنفعة بما في أيديهم، والغرباء من مكارم الأخلاق وإنزال الناس منازلهم من الإنصاف وهو من العدل، فيعلم بوجود ذلك من أهل عصبيته انتماؤهم للسياسة العامة هي الملك، وأن الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجوب علاماتها، ولهذا كان أول ما يذهب من القبيل أهل الملك إذا تأذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم إكرام هذا الصنف من الخلق فإذا رأيته قد ذهب من أمة من الأمم فاعلم أن الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم ﴿وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له﴾، والله تعالى أعلم . (**ابن خلدون،عبد الرحمن (2001)، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، ص 145**)

ومما أسهم في هذا التطور الحضاري الهائل في الأندلس، مبدأ التسامح الذي سار عليه المسلمون مع غيرهم من مسيحيين ويهود، وهذا مبدأ أخلاقي رفيع مستمد من القيم الروحية الإسلامية... (**عاشور، 1963، صفحة 529**).

خـاتمة:

نأتي الآن إلى الخاتمة أين ندون أهم النتائج والملاحظات التي وودنا الوصول إليها من خلال هذا البحث المتواضع آملين في أن نكون قد وضعنا اليد على أهم الأجوبة والحلول للإشكالات المطروحة سابقا حول مفهوم القيم الروحية ومدى إفادة ابن خلدون منها واستعمالها كمبادئ وأسس في بناء الحضارة الاسلامية والعربية بوجه خاص، وعليه يمكن أن نسجل هذه النتائج في نقاط محددة نلخصها في ما يلي:

- تتنوع القيم التي تبنى عليها الحضارات الانسانية باختلاف تعريف هذه الأمم لمفهوم الحضارة فمنها القيم المادية ومنها القيم الأخلاقية أو الروحية كما يسميها البعض، وربما هناك قيم أخرى.
- تختلف القيم الروحية باختلاف مصادرها ومراجعها بحسب المفهوم الإيديولوجي لكل حضارة فمنها ما يرجع في الأساس إلى الدين أو التقاليد والأعراف ومنها ما يعود إلى القوانين والنظم الوضعية، ومنها ما يعود إلى الطبيعة والقوانين والسنن الكونية.

- إن مفهوم القيم الروحية في الحضارة الإسلامية هي المبادئ التي يحددها الكتاب والسنة لأن الكتاب والسنة هي المرجعية الثابتة والهوية الراسخة لهذه الأمة.
- لقد شكلت القيم الروحية في الدراسات الخلدونية الحجر الأساس في فهمه للحضارة، ومثلت مقياس (باروماتر) لبناء الحضارة وسقوطها.
- الخلفية الثقافية لابن خلدون هي التي تحدد مدى اعتماده في نظرياته على تلك القيم أم غيرها.
- لقد اعتمد ابن خلدون في فهمه للحضارة وسر بنائها أو سقوطها للمرجعية الاسلامية التي مصدرها الكتاب والسنة والتي لا تتعارض بحال من الاحوال مع السنن الكونية المودعة في الكون، ولكن استدلاله بها وافق طبيعة هذه القوانين في الانفس وفي الآفاق، ولهذا عده بعضهم انفصالا عن الدين لاختلاف هذا الاستدلال عن الطريقة التقليدية لسلف الأمة، إذ ينطلق ابن خلدون من القوانين الكونية والنواميس الطبيعية مستدلا ومعللا ليصل بها إلى معارف وعلوم أقرها القرآن بل وأشار إليها ولكنها لم تُدرك مباشرة قبل ذلك، بل بعد البحث والتقصي والتفتيش في زوايا المجتمعات والكون والأنفس.

قائمة المراجع:

1. **ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (2001). المقدمة، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت: لبنان،ط5**
2. **ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (2001). كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت : دار الرائد العربي، ط2.**
3. **أحمد، الشريف (1976). دراسات في الحضارة الإسلامية، القاهرة.: دار الفكر العربي**
4. **ياغي، إسماعيل أحمد (1997). أثر الحضارة الإسلامية في الغرب، الرياض: مكتبة العبيكان**
5. **الأصفهاني، الحسين بن محمد، (1412هـ). مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داو ودي، دمشق: دار القلم، ط1**
6. **بن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم (1410). لسان العرب، بيروت: دار الفكر، ط11**
7. **بن نبي، مالك، ترجمة: الطبيب الشريف(1964م). آفاق جزائرية، الجزائر: مكتبة النهضة، ط1**
8. **دي بوير(1948) تاريخ الفلسفة في الاسلام. ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى**
9. **عبد العزيز غوردو، مقال عودة إلى ابن خلدون، مجلة أقلام الثقافة.**

10. عبد العزيز بن عثمان التويجري (د،س)، خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل، الرباط: منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.
11. عثمان، أحمد (1402هـ). القيم الحضارية في رسالة الإسلام، الرياض، دار السعودية، ط 1
12. العدوي، إبراهيم (1994). الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة الشراع العربي
13. عثمان، أحمد (1402هـ). القيم الحضارية في رسالة الإسلام، الرياض، دار السعودية، ط 1
14. عمر عبيد حسنة (1992م). تقديم كتاب روح الحضارة الإسلامية للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، أمريكا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي
15. الرازي، محمد بن بكر(1988). مختار الصحاح، بيروت: مكتبة لبنان.
16. سعيد عاشور(1963). المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، القاهرة: دار النهضة العربية، ط1
17. الكروي، إبراهيم (1994). المرجع في الحضارة العربية الإسلامية، الكويت:منشورات ذات السلاسل
18. مجمع اللغة العربية (1994 م). المعجم الوجيز، مصر: ط 4
19. محمد عبد الله عنان (1995م). ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري، القاهرة: الطبعة3
20. نصر محمد عارف (1994م). الحضارة، الثقافة، المدنية: دراسة في سيرة المصطلح ودلالة المفهوم، واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.